القبّة

* عبد العزيز الراشدي*

- ١ -

حين الظلمة تَبْرك على الامتداد، على سهلٍ نابتٍ في مكانٍ ما من الجنوب، القطعةِ الفائضةِ من الأرض، تُمْسَح تضاريسُ كثيرةٌ من الوجود، ويولد وجودٌ آخرُ موازٍ، وتشتعل حركةٌ جديدةٌ، إذ تتحرّك كائناتٌ وسطَ الظلمة، وتتململ بعضُ الأصوات التي تحملها الريحُ وتطوِّح بها بين أركان السهل:

ـ كل.

ـ لا، كل أنتَ.

- ٢ -

وسط السهل ينفلت فراغٌ بليد، فائضٌ، غيرُ محدود، لا يفْسح المجالَ أمام انحدار أو منعطف، كبحر هادئ، أُفقُهُ الجبلُ. على صفحته، تناثرتْ نباتاتٌ قليلة كبثور سوداء. كثبان صغيرة من الرمل مقدَّدة بعناية. أحجارٌ سوداء. أما الريح فتصنع ارتعاشتَها في المدى صوتًا يحاكي جموحَ حصانٍ أرعن.

المدى والشساعة، لونُ التّراب والرمل، النباتاتُ العائمة في تيهها، والفراغُ الجائع المحموم. ثم، كندفة ثلج، كاستطراد في نصّ مسترسَل، تتبدّى قبّةٌ وسط السهل: بعيدةً، هزيلةً، بأبعاد غير متوازنة، لا تَظْهر إلاّ عند تدقيق النظر، بيضاءَ، لكنْ بشكل معوّق. فقد غطّت أغبرةُ السنين بياضَها المرتجل، ذاك الذي أنجزتْه يدٌ متعجّلة، أو تحت إكراه، تحت سطوة يقينٍ باللاجدوى، يدٍ ـ ربما ـ لم تكن تَطْمح إلى مكافأة.

تمرّ الأيامُ، والقبةُ وسط السهل تعيش رتابةَ زمنه الراكد، دون أن تَعْبأ.

في أيّام المطر، على ندرتها، تبدو القبّةُ وحيدةً وسط المياه، ملتصقةً بنفسها، كبائعة الكبريت تنوء تحت ضربات المطر، يخالها الجميعُ ستسقط، لكنْ، لسبب غامض، تتحاشاها السيولُ، وتصنع مجاريَها بعيدًا.

ثم تأتي الخضرةُ مع الربيع، فتُنْبت حركةَ الأغنام وسط السهل. وقتَها، تخال القبّةَ أكثرَ انسجامًا مع نفسها، وتغدو أبعادُها أكثر توازنًا. بعد وقت، يطول السهلَ اليباسُ، فتعانق يُتمَها من جديد.

خلال الصيف، ذاك الذي يطول، تَبْعث الشمسُ شعاعَها الناشف. تكاد القبة تحترق. ومن بعيد، من أعلى الجبل، ومن أسطح القرى البعيدة، تبدو القبةُ في حمّى القائلة كسفينةٍ تَمْخر عبابَ السراب.

أكثر الأمور قسوةً على القبة أنّ ظلمة الليل تَسْقط في كلّ الفصول، تَمْسحها، تُحِيلها عدمًا. وحين تَبْرك، تبدأ الأصواتُ من داخل السهل، وتحديدًا من داخل القبّة، تتحاور:

ـ كل.

ـ لا، كل أنت.

---

* ـ كاتب مغربيّ.

- ٣ -

للقبّة ميزتُها: بناؤها قديم، ولونُها أبيضُ عاكسٌ للأشعّة. ولذلك تكون باردةً خلال الصيف. يرتادها الغرباءُ، كلّما حطّوا رحالَهم بإحدى القرى المجاورة: دجّالون، متسوّلون يَعْقبون موسمَ الحصاد، بائعو أقمشة رخيصة، بائعو الزعفران والمسك، يتجولون في القرى، يَعْرضون بضائعَهم على نساء وأطفال جاهزين للدهشة من كلّ شيء. وحين تداهمهم القائلةُ، يتسرّبون إلى السهل، يَنْفضون عنهم تعبَ المساومات، يَطْهون طعامَهم، ويروِّجون الحكايات.

في الغالب، يأتون على صهوات حميرهم، ينزلقون بعد الغروب إلى هناك، يخبِّئون الحميرَ تحت شجيْرات الطلح، ثم يدخلون القبة. عندها، تحت جنح الظلام، تنسحب نساءٌ كثيراتٌ متّشحاتٌ بالملاحف السوداء والرغائبِ الغامضة، محمّلاتٍ بصناديق التمر، يتقايضن بالبضائع والأحجبة التي تَطْرد البأسَ وتَجْلب الأزواجَ.

داخل القبة، حصيرٌ ممزَّق، قُلّةُ ماء، حيطانٌ مسودّةٌ جراء الشمع، سقفٌ متهالك، وقبرٌ طويلٌ بأبعادٍ لا تَسْمح البتةَ باعتباره قبرَ رجلٍ واحد.

- ٤ -

كلُّ الذين جاءوا القبّةَ، وناموا على حصيرها متوسِّدين القبرَ الطويلَ، غادروا المكان. فلقد ملّوا، أو قاربتْ حيلُهم على النفاذ، وبعضُهم جَرَفَه حنينٌ مموَّه إلى أمكنة أخرى.

وحده ذلك الرجل، الذي يسمُّونه «المجذوب»، يظلّ هناك، كقطعة من القبّة، يرعاها، يَسْتقبل الغرباءَ والهدايا والنذورَ وشمعَ النساء. يملأ قلّةَ الماء كلّما نضبتْ. طويلٌ، بصندلٍ متّسخ. ملابسُه مغبرّةٌ. شعرُه مشعّثٌ. وعينُه اليسرى مغمضةٌ طوال الوقت.

كلّ القرى تحكي عن علاقته بالقبر المزروع في القبّة، حيث جدُّه الراقد، والكنزُ الذي أَوْكلتْ إليه الجنُّ حراستَه. يظلّ هناك طوال الوقت، وحيدًا، مثيرًا للأسئلة.

وحين الظلمة تمتدّ على السهل، ينطفئ كلُّ شيء: المساكنُ التي لم تصلْها كهرباءُ الحكومة، والجبلُ، وتعبُ النهار. وتبدأ حركةٌ ما داخل القبة. يستقبل الرجلُ الغرباءَ، يجهِّز الشايَ المنعنع، يملأ «سباسي» الكيْف الواحدةَ تلو الآخر، ويشاركهم لعبَ الورق.

يدخّنون ويلعبون. وتحت تأثير الدخان، والإحساسِ المثاليّ بالليل والسهر، يواصلون اللعبَ من دون كلل، من دون التقيّد بعدد محدد من الأشواط. وأثناء ذلك، يختلفون على أدوارهم في اللعب. عندها تسمع أصواتَهم على امتداد السهل:

ـ كل.

ـ لا. كل أنتَ. إنّه دورك.

المغرب